المَشرقُ الرَّقْميَّة
مجلَّة إلكترونيَّة تصدر مرَّتين في السَنة عن دار المشرق
العدد السادس، حزيران ٢٠١٥

مسلمٌ في جوار الفاتيكان

بقلم: خالد محمد عبده*

عندما زرتُ مدينة سينا (Siena) بإيطاليا أعجبتني كثيرًا ساحة فسيحة منحدرة، على شكل شال كبير للعذراء يجلس عليه النّاس، فتبدو وكأنّها تحتضنهم! هل يمكن حقًّا الكلام على سرّ جمال وجلال السيّدة مريم من دون التّعرّض لنفحات عشقها؟ يبدأ عدنان المقراني كتابه **تأمّلاتٌ مريميّة** بهذه الكلمات، مؤكِّدًا أنّ جهد الفرد غير معصومٍ، لذلك يلجأ إلى مفهوم تراث الإنسانيّة الذي يجعل النصوص المقدّسة ملكًا للبشر جميعًا باختلاف ألوانهم وأديانهم، يشتركون في تأويل النصوص وتبادل الخبرات والتجارب الروحيّة المثمرة من عبير كلمات الله، وهنا يمكنهم أن يقتربوا من فهم المراد الإلهيّ، وعندها تنمو العصمة مع الجماعة المتّحدة في الرّوح.

سافر المقرّاني من تونس إلى روما لتعميق دراساته في المسيحيّة، فقد حصل من جامعة الزيتونة قبل سنوات طوال على درجة الدكتوراه، وكان موضوعها: "نقد الأديان عند ابن حزم الأندلسيّ"، لم يرد عدنان أن يستكمل مسيرته في بحث التراث، فعندما اقترح الأب اللبنانيّ سمير خليل عليه أن يهتمّ بدرس المخطوطات المتعلّقة بالجدل والدفاع بين الإسلام والمسيحيّة، أخبره أنّه يريد أن ينتقل من النصوص إلى العالم الذي ينتجها واقعًا، فركّز المقرّاني اهتمامه على درس "نظرة المسيحيّين اللبنانيّين للعلاقات المسيحيّة الإسلاميّة بعد الحرب الأهليّة"، ليتمّم عمل الأب جورج مسوح حول نظرة المسلمين إلى العلاقات الإسلاميّة المسيحيّة، بحث عدنان في الواقع و"حجّ إلى الله في الإنسان" والتقى بالمسيحيّ العربيّ الشرقيّ، بعدما تعرّف في روما إلى المسيحيّ الغربيّ.

يصف المقرّاني الإيمان بأنّه لقاء الله في الحياة، هو معنى الحياة وطاقتها الدافعة، معنى وطاقة متجدّدان لا ينضبان: بالخبرة، بالأزمة، بالشكّ، بالموت، بالحيرة، بالألم، بالرجاء، بالخطأ والصواب، بالكبوة والصحوة ... الإيمان يأخذ أحيانًا شكل خبرة الصمت والوصل بالنظر، خبرة حبّ كثيف جامح عاصف مربك ومحيّر، وعندما تهدأ العاصفة يتحوّل الصمت إلى كلمات تعبّر عن فحوى الخبرة بطريقة تقريبيّة محدودة بطبيعتها، وتكتسب الكلمات قيمتها بصلتها الحميمة بالخبرة عند المتكلّم وعند السامع سيّان، ثمّ تتحوّل تلك الكلمات إلى حركة وفعل وعطاء وسخاء ومحبّة متجسّدة متأنّسة، تصبح رحمةً للعالمين وحياةً للأرض والسماء والبشر.

---

* مدير أبحاث (قسم الموروث الدينيّ) بمركز دال للأبحاث والإنتاج الإعلاميّ. له كتبٌ وعشرات الأبحاث والمقالات المنشورة.

فالإيمان أكبر من أن تتضمّنه قائمة موضوعات وعقائد وأفكار، وأكبر من أن تستنفد إمكاناته الحركيّة والتاريخيّة جماعة أو أمّة أو ثقافة أو جيلًا ..، الإيمان أكبر من إيماني وإيمانك وإيمان الناس، ولكنّه كلّ ذلك في آن واحد.

الإيمان فضيحة، خطر الموت، مجازفة غير محسوبة، خروج عن العادة والمألوف، التعرّض للمفاجأة، الجنون. وهو عين الحكمة وخلاصة التجارب وإكسير الحياة، والحقيقة الحقّة التي تتلوّن بكلّ لون ولا تتفسّخ، إنّه صبغة الله. الإيمان هو ذلك الحبل السرّيّ الذي يربطنا بسرّ الوجود وبمن نحن حقًّا في عالم الذرّ وفي عالم الكرّ والفرّ.

ويرى أنّ التديّن حوار مع الله، ووظيفة الدين الأساسيّة هي تخليص الإنسان من الأنا، فالأنانيّة هي العقبة الأساسيّة في العلاقات وفي النظر إلى الآخر، كذلك الأنا الجمعيّة الـ"نحن"، هذه الأنا الجمعيّة هي ما تدخلنا في إطار العصبيّة، والإقصاء والمنافسة غير الشريفة بين القبائل الدينيّة، ولا تكسر هذه الأوثان إلّا بالحوار، فيكسر وثن الأنا الفرديّة ويكسر وثن الأنا الجماعيّة، عندما تصبح الجماعة مطلقة وليست فضاءً للنموّ. لي صديق كان يقول: "أنا أعبد الله ولا أعبد ديني" ديني هو سبيلي إلى الله، ولكنّ ديني ليس الله.

يعلّق المقرّاني على القول الصوفيّ "الطّرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق" بأنّ أفكارنا أجساد الحقيقة وتكون أحيانًا سجنها ووثنها. الأجساد تتدافع وتتصارع، لأنّها مجبولة على "التحيّز" المكانيّ والنفسانيّ. وراء الأفكار هناك ذوات ترقى وتشقى، ترتفع ثمّ تهبط، لترنو برأسها إلى الضياء. هذه الذوات هي أمّ الأفكار ومحضنها، كثيرًا ما تحجبنا الأفكار عن الذوات المفكّرة والساعية، نعطي أهمّيّةً أكبر للأفكار والمعتقدات أكثر من الأشخاص الذين يجلسون أمامنا ونتحدّث معهم.

ما تلك الأفكار إلّا صوت الحركة، الحركة أهمّ من الأفكار، فنحن نغيّر أفكارنا في كلّ حين ما دمنا أحياءَ نتحرّك. هذه هي المشكلة الحقيقيّة في رأيي، إطلاقيّة الفكرة كانت على حساب إطلاقيّة الإنسان، فعلينا أن نُعيد ترتيب الأولويّات، الإنسان أوّلاً والفكرة ثانيًا. فالنهر الحيّ لا تعبره فكرة واحدة مرّتين، فكلّ يوم هو في شأن.

القراءة المتأنيّة للقرآن الكريم تظهر لنا أنّ التعدّد والتنوّع سنّةُ الله في خلقه، وأنّ الله يدعونا إلى تدبُّر هذا التنوّع الدالّ على جمال الخالق وجلاله. أمّا مَن ينفي التعدّد فهو لا يعترض على إرادة الله سبحانه وحسب، ولا يفهم سنّته تعالى، بل يريد أن يجعل الكون والمجتمع صورة عن جهله وفقره وجرداء قلبه وفكره. شخص لا يملك في رأسه إلّا فكرة وحيدة يتيمة لا يرى غيرها يريد أن يستنسخ منها بعدد الأنفاس، حتّى يكون الناس على شاكلة جهالته وفقره، لا على صورة الله ومثاله. إنّه "تديّن" قاتل للتديّن.

وإذ تعقدُ اللقاءات والمؤتمرات من أجل الحوار بين الأديان بغية إصلاح خلل المجتمعات، حسبما يقول أهل الحوار، فإنّ بعضَهم دائمًا ما يتساءل هل المؤتمرات الخاصّة بالحوار تفيد المجتمعات أم تصبّ في صالح السياسة والحكومات؟ يعلّق المقرّاني قائلًا: كون بعض اللقاءات الحواريّة هي أقرب إلى الدبلوماسيّة الشكليّة وتثبيت المراكز والسلطات، لا يجعلنا نشكّ أو نشكّك في جدوى الحوار وضرورة الإبداع في إنتاج أشكال جديدة له تكون أقوى جرأة وقدرة على تكوين الإنسان وتحريره من وثنيّته وقبليّته الدينيّتين، عندما يعتبر نفسه "عبد الله" الأوحد، فيصبح الأوحد صفة للمعبود والعابد معًا، في شرك خفيّ سرعان ما يظهر في الإقصاء فالقتل المعنويّ والماديّ باسم الدين.

الحوار هو قاربنا المعرفيّ لاكتشاف عمل الله في الوجود ومع الناس والثقافات والأديان. فهو "تعبّد" حقيقيّ وتحرير للعبادة من كلّ صنمٍ عقديّ أو فكريّ، حتّى لا نكون محلّيّين للنخاع وندّعي العالميّة والأبديّة.

وعمّا إذا كان هناك فرار نحو الروحانيّة أو التصوّف اليوم، يؤكّد المقرّاني أنّه ليس بالضرورة فرارًا بل قد يكون إقبالاً على نبع التديّن الصافي بعد تصحّر روحيّ وفقر معنويّ مدقع. فالتصوّف جوهر التجربة الدينيّة، وهي تجربة إنسانيّة عالميّة، من دونها لا معنى للعقائد ولا للشعائر، فاللقاء الشخصيّ بالله وتذوّق حلاوة الإيمان لا يمكن تعويضه بأيّ أشكال أو ممارسات، بل هو لبّ الألباب والأساس لكلّ ما يمكن أن يُبنى فوقه.

كون التجربة الدينيّة/ الصوفيّة بهذه الأهمّيّة، لا يعني أنّ التصوّف وأهله معصومون من الخطأ والزلل. ولعلّ أشدّ الأنانيّات خطورةً وخفاءً هي أنانيّة مدّعي الولاية. الانعزاليّة والنظرة الفوقيّة والاستعلاء على الخلق والتواكل والاستسلام والاستقالة من التاريخ ومن المسؤوليّة الاجتماعيّة، كلّها أمراض يمكن أن يقع فيها المتديّن على النهج الصوفيّ مثل غيره من الناس.

تفسير آخر يمكن طرحه للاهتمام المتزايد بالتصوّف، يمكن اعتباره خطّةً جيو-إستراتيجيّة من قبل قوى داخليّة ودوليّة لمحاربة الإسلام السياسيّ من خلال تشجيع التديّن الصوفيّ، معتبرةً إيّاه تديّنًا "يفرّ" من السياسة ولا يقبل عليها، ربّما يقبل على موائد الساسة والوجهاء، ولكنّه عادةً تديّن مطيع ووديع! هذا التوظيف السياسيّ والأيديولوجيّ للدين يدّعي أنّه يحارب التوظيف السياسيّ المعاكس والمتمثّل في الإسلام السياسيّ، وكلاهما في الهمّ شرق. ولكنّ التوظيف الذرائعيّ لا يمسّ جوهريّة التصوّف وأهمّيّته لمن طلب الحقّ بقلبٍ سليم.